

(بدليل أن الأجسام لا تشترك كلها فيها) - ثم يتدرج إل تقسيم النفوس إلى الأنواع الثلاثة المروفة من الأمم إلى الأخص فتصريف كل منها وتعميل قواها وملكانة على نحو ما تبين لكم من قبل .

وإذ أثبت وجود النفس ، ينتقل إلى إثبات صفات أخرى تتعلق بهذا الوجود ، كالوحدة ، والحدوث ، والخلود ، وعدم التناسخ - فبعد تناول الذات يقرر الصفات ، كما يفضل في قسم الإلهيات حين يورد البراهين لإثبات واجب الوجود (الله) ثم يتبع ذلك بإثبات صفاته . وأول ما يتناول من هذه الصفات حدوث النفس أي أنها ليست قديمة ولا أزلية ، بل مخلوقة وحيدة ولم توجد قبل البدن بحال - لأنها إن وجدت قبل البدن كانت ذاتاً واحدة أو ذوات متعددة . فإن كانت الأنفس كثيرة ومتعددة قبل حلولها في الأبدان لزم من ذلك محال ؛ لأن تناورها حينئذ كجواهر مجردة ذات صورة واحدة لن يكون من حيث الماهية أو المدد ، بل من حيث القابل أو الحامل لها الذي هو البدن - فقد يطل إذن أن تكون مختلفة الذوات . وبمثل ذلك يبطل أن تكون النفس واحدة ، لأنها إن كانت كذلك فكيف تنضم في أجسام كثيرة أو تحمل في أبدان عديدة ؟ فالنفس إذن تحدث بحدوث البدن وتولد معه تدبر أمره وتدبره . وتظل تضي به وتكمله إلى أن تقارقه .

وحين يموت البدن لا تموت النفس ، لأن فسادها لا يترتب عليه فسادها ، فهي ليست متعلقة به أي نمو من التعلق : فلا هي مكافئة له في الوجود ، ولا هي متأخرة عنه في الوجود ، ولا هي قبله بالذات أو بالزمان كما سبق أن أوضح ذلك . أما علاقة التكافؤ فباطلة ، لأن التكافؤ إن كان ذاتياً كان النفس والبدن جوهرين أحدهما مضاف إلى الآخر ، وإن كان عرضياً يطل الثاني منهما بفساد العرض ولم يفسد مثله . ولن يكون ثمة تكافؤ على أي حال . وأما علاقة التأخر في الوجود بالنسبة إل النفس فباطلة أيضاً ، لأن الجسم حينئذ سيكون علة وجودها ، ويمتنع أن يكون البدن علة فاعلة للنفس ؛ لأن الجسم في ذاته غير فاعل ، وصورة المادية لا تعمل إلا بالقوى الروحية التي فيها ، كما يمتنع أن يكون البدن علة قابلة للنفس ، لأن النفس ليست منطبعة في البدن ، ولا هو

مداينة الفلسفة لما عرّب السنة الشريفة : (٥)

(١) النفس عند ابن سينا (٥)

للأستاذ كمال دسوقي

إلى هنا أثبت لكم الشيخ الرئيس وجود النفس، ووجودها مفارقة للجسمية والمادة . وبهمني أن أنبهكم - أيها المتسابقون البيواهل - إلى أن ابن سينا هنا في إثبات وجود النفس على غير عادته - أي أنه في رسالته في النفس التي قلت لكم إنه ألغها ولم يطلع الشرين للأثير نوح بن منصور الساماني قد سماها النجو الأرسطلي في التصدي لإثبات وجود النفس قبل الشروع في تعريفها وتقسيمها إلى نباتية وحيوانية وناطقة ، ثم في تصنيف قوى كل من هذه النفوس ، فقد كان في ذلك الحين مقتنعاً بانتناع أرسطو بضرورة إثبات وجودها أولاً . وفي ذلك يقول في مطلع رسالته المذكورة : (من رام وصف شيء من الأشياء قبل أن يتقدم فيثبت أولاً أنسيته (يعني وجوده) فهو محدود عند الحكماء بمن زاغ من محجة الإيضاح . فواجب علينا أن نتجرد أولاً لإثبات وجود القوى النفسانية قبل الشروع في تحديد كل واحدة منها وإيضاح القول فيه ... الخ ص ٢٠ وما بعدها من نشرة فتدليك للرسالة

مصر ١٣٢٥ هـ

هذا ما يقول به ابن سينا حين يكتب في النفس كتاباً أو رسالة مستقلة ، أما حين يكتب عنها في كتاب عام شامل كالنجاحة فيرى أن يتناولها داغماً في موضعها من سلسلة الموجودات التي سبق أن أظهرتكم عليها ، ويتعمق حينئذ ألا يمرض لإثبات وجودها إلا بعد أن يقسمها إلى أقسامها الثلاثة حتى ترتبط بما قبلها وما بعدها في سلسلة الموجودات ، وهو بذلك لا يزيغ من محجة الإيضاح - كما حكم على غيره ونفسه - لأنه هنا أكثر منطقية وأكثر تحمراً من أرسطو . وأياً كان موضع إثباته لوجود النفس ؛ فإنه يذهب في هذا الإثبات مذهباً واحداً بعينه : هو التدليل على أن الحركة والإدراك - اللذين هما من أخص خصائص القوى النفسية - هما من قوى زائدة عن الجسم ، مفارقة للبدن

بسيطة غير منقسمة أو مركبة ، وباقية بالفعل ؛ فهي لا تفسد ، وليس لها قوة تضاد . أما الذي يفسد فهو المادة المركبة التي لها قوة أن تقبل البقاء وتقبل الفساد .

والنفس لا تتقصر ولا تتناسخ . فقد أوضح من قبل أن حدوث النفس إنما يكون نتيجة تهيؤ الأبدان لقبولها ، هذا التهيؤ يقتضى وجود النفس أصلاً كعلة مفارقة جديدة لا منتقلة من بدن آخر — ولو كانت النفس تتناسخ الأبدان واحداً بعد آخر لكان حلولها فيها من قبيل الصدفة المرضية البحث . ولكن التكرار في هذه النفوس يحدث من قبيل الاتفاق والبحث (فارسي صرب يراد به الصدفة Par hasard بالفرنسية أو By Chance بالإنجليزية) . بينا إثبات حدوث النفس بالطريقة التي تقدم بها ابن سينا يحمل علة طول الأجسام في الأبدان بعد تمام تهيؤها (Disposition في الإنجليزية والفرنسية هي ما تقدم هنا بالتهيؤ) علة ذاتية ضرورية لا مجال فيها للصدفة أو الاتفاق

المرضى . ثم إن النفس التي تتناسخ جسام تكون زائدة فيه عن تلك التي راتته بعد تمام استعدادها على النحو الذي ذكرنا — فيكون للجسم تضامن : إحداهما قطعاً لا يشغل لها ولا عمل — ولا يشعر بها الجسم ولا تشعر هي بذاتها (لأن كل ذى نفس فهو وهذه النفس شيء واحد) فما عمل هذه النفس الثانية وما قيمتها (إذ أن علاقة النفس بالجسم — كما سبق أن بين — هي علاقة اشتغال وتغيير لا مجرد انطباع وحلول) — فضلاً عن أنه ليس جسم أول من جسم بأن يكون لهذا تضامن ، وإنما نفس واحدة . فالتناسخ باطل وخلف .

والنفس — رغم كل هذه التعريفات والتفسيحات — ذات واحدة ؛ واحدة وإن تعددت القوى وتشعبت الملكات . لأن هذه الملكات والقوى لو لم تكن تؤدي إلى مبدأ واحد لصدر من كل منها أصال مختلفة الأجناس . فثلاثتنا الإحساس والفتناب لو كانتا شيئاً واحداً لكانت منهما قوة واحدة يصدرفها الإحساس والاحتجابة بالفتناب — مع اختلاف جنسهما كفتلين ، وإن كانتا قوتين مستقلتين لكانت يستحيل فعل أحدهما باستحالة فعل الآخر . ولما كان فعل كل قوة خاص بالشيء الذي هو قابل له ولا يصلح لغيره ، وكانت هذه التأثيرات يرد بعضها لبعض ،

مقصود بصورتها في كله أو في جزء جزء منه — كما بين ذلك في حديثه عن تجرد جوهرها — ويمتنع كذلك أن يكون البدن علة صورية أو مكلة للبدن ، إذ العكس أدنى إل الحق ، فليست النفس معلولة بالبدن ، وبالتالي لا علاقة لها به على أساس التأخر في الوجود . حقاً إن البدن علة بالدرهم لوجود النفس ؛ لأنه متى وجد محل وجودها ومملكتهما أحدثتها الملة الفاعلة الإلهية (العقل الفعال) لتحل فيه . فالسادة سابقة بتهيؤها واستعدادها لقبول النفس ، ولكن النفس توافيها حالاً يتم لها هذا التهيؤ والاستعداد حتى لا تبقى الآلة معطلة . والذي ينبغي هنا أن وجوب حدوث النفس بمحدوث الجسم لا يستلزم وجوب فساده بفساده ؛ فهي من جوهر غير جوهره ، وواهب هذه الصورة النفسية (العقل الفعال) غير جسمي كذلك ؛ فهو الملة الفاعلة الحقيقية للنفس . وليس تقدم البدن على النفس في الوجود — إن صح — تقدم علة للحلول بحال .

أما العلاقة الثالثة : تقدم النفس على الجسم في الوجود — فهو إما تقدم زمني — فلا يكون علة علاقة — أو تقدم ذاتي فيلزم أن يحصل التأخر كلما حصل المتقدم بحيث إذا اندمج التأخر فلا بد أن يكون قد حصل للتقدم في نفسه شيء أعدهه ؛ يعني أن فساد البدن يرجع حينئذ إلى فساد في النفس ذاتها ترتب عليه فساد البدن ، ولكن فساد البدن وتخلله — كما نعلم — مما من ذاته ، فبطل إذن تعلق النفس بالبدن علاقة تقدم زمني أو ذاتي . وبطلت بذلك أنواع العلاقات الثلاث كلها ، وثبت أن النفس لا تموت بموت البدن .

بل إن النفس لا تقبل الفساد أصلاً ؛ يعني أنها أبدية خالدة *éternelle* وحجته في ذلك قوية رائمة ، فالشيء القوي يقبل الفساد فيه البقاء بالفعل *en acte* والفساد بالقوة *En Puissance* ولا يجوز أن يجتمع هذان المعنيان في الأشياء البسيطة الفارقة وبالجملة في أي شيء ذاته واحدة . فإن عرضاً لشيء فلا بد أن تكون ذاته مركبة من شيء إذا حصل كان باقياً بالفعل . وإذا امتنع كان فاسداً بالفعل (ولكن نسلوا إلى فهم ابن سينا هنا أذكروا ما درس لكم من أن أساس الملكة والدمم في المنطق واحد . وابن سينا يتراض هنا على جعل أساس الملكة وأساس للمدم — أي البقاء والفساد — هنا بالفعل وذلك بالقوة . وما دامت النفس

إنه يقول « إنى فعلت كذا أو فعلت كذا » ، وفي مثل هذه الحال يكون غافلاً عن جميع أجزاء بدنه ... فالمراد بالنفس هنا هو ما يشير إليه كل أحد بقوله « أنا » . وليس المقصود بهذه القدانية - كما ظن أ أكثر المتكلمين - الإشارة إلى البدن ، فهنا ظن فاسد . (راجعوا رسالته في معرفة النفس الناطقة وأحوالها لابن سينا . صفحات ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) .

وكان ابن سينا يريد أن يخالف أفلاطون في موضع هذا المبدأ النفسى الواحد - فيجعلها في القلب ، ولكنه لم يلبث أن شكك في صحة ذلك لما رأى من مفارقة قوى النفس النباتية والحيوانية والناطقة وتدرجها في النبات والحيوان والإنسان بحيث لا تنطق قوة منها بأخرى ، وعاد تفسر هذا التباين في مظاهر الحياة التي تتمثل في كل من هذه النفوس بأن التضاد في مبادئها محل فيه كل منها بالترتيب يزول شيئاً فشيئاً ، وأنه كلما كان هذا التضاد بين هذه المبادئ أدنى إلى التوافق والانسجام Harmonie كانت النفس أكثر قبولاً لمبدأ نفسى أرقى . يعنى أن العقل الفعال يهب الإنسان نفساً ناطقة أرقى : لأن عناصر تركيبه أكثر توافقاً وانسجاماً على نحو ما تفيض الشمس على شيء بمجرد التسخين ، وعلى آخر بمجرد الإضاءة ، وعلى ثالث بالاحتراق تبعاً لمادة كل من هذه الأشياء .

كذلك العقل الفعال مبدأ الفيض وواهب الوجود والصور به تخرج الأشياء من القوة إلى الفعل ، كما تستفاد الصور المنقولة فهو بذاته عقل بالفعل ، وما عداه من العقول التي ذكرنا فهي منقولة به هو الذى تسيح منه قوة إلى أشياء الحيال والرؤم والحس التي هي منقولة بالقوة لتصير منقولة بالفعل .

وبعد - فهل نقى شيء في النفس عند ابن سينا لم نعرفه أيها الطالب النجيب ؟ هناك قصص رمزية كرسالة الطير وقصة سلمان وأبسال وغيرها - وهناك قصائد وأشعار في النفس أهمها هيئته المشهورة التي شرحها المناوى وغيره - وترجمها إلى الفرنسية وشرحها البارون كارادى مؤ (المجلة الآسيوية . يوليو وأغسطس ١٨٩٩ ص ١٦٠ وما بعدها) - ولكن هذه كلها لا تنيك لما فيها من صوفية وخيال ، وحسبك أن وقعت حتى الآن على كل شاردة من مذهب ابن سينا الفلانى في النفس .

كامل وسرفى

ويستجيب بعضها لبعض ؛ لم يبق إلا أنها تؤدي جميعاً إلى مبدأ واحد .

ويتجرد ابن سينا بعد ذلك لرد شبهات على وحدة النفس ، ويأتى في هذا الصدد بحجة يسبق بها للفلاسفة الهديين في إثبات وجود النفس هي الحجة المروفة بالآنا Le Moi . ومؤدى هذه الشبهة أن الانفعال بالغضب - في المثال السابق - ليس عن الصورة المحسوسة ، وإن يكن نتيجة للحس ، وابن سينا يعسر على بطلان هذه الشبهة . ويؤكد حدوث الانفعال بالغضب من تأثير الحس ما دام الإنسان حياً . ويصعد بعد هذا إلى تحليل قولنا : أنا أحس ، فيرى أن هذا (الآنا) إما جسم الإنسان أو نفسه ؛ فإن كان جسمه فهو إما حجة أعضائه - وهو محال ، وإما بعض أعضائه - فيكون أحدها أحس والآخر غضب - وقد ظهر بطلان ذلك من قبل ، وإما عضو واحد أحس فغضب - وهو مردود أيضاً إن أردنا المصو بمعناه الحقيقي - فإن كان ولا بد أن الحاس والغاضب شيء واحد ، فهو هذه للقوة التي قلنا إن الملكات ترتد كلها إليها - القوة الواحدة التي ليست جسماً ولا في جسم ، بل هي النفس .

فأنتم هنا بصدد سبق فلسفى رائع أتى به ابن سينا قبل أن يقول به ديكارت بقرون ، وأعنى به إثبات وجود الذات بالتجربة الداخلية والتأمل الباطنى ؛ فالتك بدل على الشاك ، والفكر على الفكر ، والحس على الحاس ، وهو ما نسميه اليوم بالكوجيتو الديكارنى (نسبة لعبارة المشهورة : أنا أفكر ، فأنا إذن موجود Je Pense . Donc Je suis والفعل (بفكر) هو في اللاتينية التي كتب بها ديكارت Cogito وهو سر هذه التسمية) . وابن سينا يدرك ما في هذا البرهان من جذوة وطرافة ، وهو يملن عليه بقره : فهذا برهان عظيم يفتح لنا باب التيب ... فننفتح عنده هذا البرهان وتصوره في نفسه تصوراً حقيقياً فقد أدرك ما غاب عن غيره ؛ بمعنى أنه يستطيع أن يستبطن نفسه بحق . واستبطن المرء ذاته ، والدخول في نفسه دون حواسه - التي يجب أن تكون منقولة تماماً - ليس في مقدور كل شخص ولا في كل حين ... الخ كما يوضح هذا البرهان يقوله : والإنسان إذا كانت متهماً في أمر من الأمور فإنه يستحضر ذاته حتى